لَمَحَاتٌ عِلْمِيَّةٌ وَقُطُوفٌ تَفْسِيرِيَّةٌ

د. محمد دودح

الباحث العلمي بالهيئة العالميــة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

لَمَحَاتٌ عِلْمِيَّــةٌ وَقُطُوفٌ تَفْسِيرِيَّةٌ

د. محمد دودح

الباحث العلمي بالهيئة العالميــة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

المُقَدِّمَة

لا خلاف في المنهج بين مفسري اليوم للآيات الكونية ومفسري الأمس؛ سوى تَجَلِّي بعض خفايا الخليقة بعد اكتشاف المنظار والمجهر وتطور وسائل الرصد، لتسطع البينة على أن هذا القرآن هو الحق، ولو كان مُفَسِّرِي الأمس مُعَاصِرِين لَسَارَعُوا إلى تفسير الآيات الكونية بالحقائق العلمية، فقد فاضت كتبهم ومن سار على دربهم بوجوه من الإعجاز في القرآن الكريم.

قَالَ الْفَخر الرازي: ""كَانَ عمر بن الحسام يقْرَأ كتاب المجسطي على عمر الْأَبْهَرِيّ فَقَالَ لَهما بعض الْفُقَهَاء يَوْمًا: مَا الَّذِي تقرأونه؟ فَقَالَ الْأَبْهَرِيّ أفسر قَوْله تَعَالَى {أفلم ينْظرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقهم كَيفَ بنيناها} فَأَنا أفسر كَيْفيَّة بنائها، وَلَقَد صدق الْأَبْهَرِيّ فِيمَا قَالَ؛ فَإِن كل من كَانَ أَكثر توغلا فِي بحار الْمَخْلُوقَات كَانَ أَكثر علمًا بِجلَال الله تَعَالَى وعظمته""[1]، والمجسطي هذا كتاب قديم في الفلك والرياضيات ألفه بطليموس حوالي عام ١٤٨م في الاسكندرية، وترجمه إلى العربية حنين بن إسحاق العبادي في عهد المأمون حوالي عام ٨٢٧م[2]، فما بالك بالمجلدات اليوم المزدانة بمفاخر الكشوف ومآثر العلوم!.

وتأتي الملامح العلمية بعفوية وتلطف لا يلفت عن غرض الإيمان، ولا مجال لاستنباط وجه علمي بمعزل عن تفهم بديع أساليب البيان، والخشية من تغير الحقائق العلمية مع الزمن حرص محمود؛ لكن الحقائق ثوابت لا تتغير مع الزمن كظلمة البحر العميق، والقول بأن الاجتهاد قد يصيب وقد يخيب صحيح؛ ولكن حرص المتضلعين بعلوم اللغة والشريعة والطبيعة كفيل بالتصويب.

والتفسير بالعلوم يُوَضِّح ما انتظرته الأيام ليتجلى ويسطع ويتحقق وعد جازم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ص:٨٧و٨٨، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ٤١فصلت:٥٣، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ٢٧النمل:٩٣، ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ. لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٦الأنعام:٦٦و٦٧، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ ١٠يونس:٣٩، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ٣٨ص:٨٧و٨٨.

د. محمد دودح

[1] فخر الدين الرازي؛ مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة؛ ١٤٢٠هـ (١٤ \ ١٥٤).

[2] موسوعة ويكيبيديا والشبكة الدولية.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ٢٤النور:٣٩.

Paragraph الفَقْرَة

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ. أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ ٢٤النور:٣٩و٤٠.

keywords كَلِمَات إِرْشَادِيَّة

﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾، ﴿بِقِيعَةٍ﴾، ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾.

Translation تَرْجَمَة (تَفْسِيرِيَّة)

As for those who disbelieve, their works are like a mirage in the desert. A thirsty person thinks that it is water. But when he reaches it, he finds that it is nothing, and he finds Allah there instead, to requite him fully for his works. Allah is the most efficient reckoner.

لمَحَات بَيَانِيَّة وعِلْمِيَّة

Eloquent & Scientific Hints

في قوله تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ النور: ٣٩؛ صورة بيانية لكل ناكر يأمل نجاته بما قدم بغير إيمان من أعمال الخير، فجاء تشبيه عمله بالسراب وانتهى به الحال للهلاك في قيظ الصحراء القاحلة، وفي التمثيل تلازم السراب والقيعة؛ ودل السياق أنها شرط لوقوع السراب وتحققه جليا، والقيعة هي السطح المستوي الذي يعمل عمل المرآة، وبالفعل علم الفيزياء يؤكد حديثا؛ شرط استواء السطح لوقوع السراب.

وتحدث ظاهرة السراب في اليوم القائظ في قيعان الصحاري الخالية من الكثبان المرتفعة وفي طرق السيارات؛ حيث يتحقق وجود سطح مستوي من الأرض؛ بحيث يحدث الانعكاس للمشهد البعيد نتيجة انحناء الضوء القادم منه، نتيجة الاختلاف في كثافة ودرجة حرارة الطبقة الهوائية القريبة من سطح الأرض عن الطبقة الهوائية الأعلى منها.

فالقيعة هي المكان المُنبسط الفسيح، قال الطبري: قال الطبري: "هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِأَعْمَالِ أَهْلِ الْكُفْرِ بِهِ، فَقَالَ: وَالَّذِينَ جَحَدُوا تَوْحِيدَ رَبِّهِمْ وَكَذَّبُوا بِهَذَا الْقُرْآنِ وَبِمَنْ جَاءَ بِهِ؛ مَثَلُ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا {كَسَرَابٍ}، يَقُولُ: مِثْلُ سَرَابٍ، وَالسَّرَابُ مَا لَصِقَ بِالْأَرْضِ، وَذَلِكَ يَكُونُ نِصْفَ النَّهَارِ.. حِينَ يَشْتَدُّ الْحَرُّ..، وَقَوْلُهُ: {بِقِيعَةٍ} وَهِيَ جَمْعُ قَاعٍ، (كَالْجِيرَةِ جَمْعُ جَارٍ)، وَالْقَاعُ مَا انْبَسَطَ مِنَ الْأَرْضِ وَاتَّسَعَ، وَفِيهِ يَكُونُ السَّرَابُ"[٣]، وقال ابن فورك: "والسراب: شعاع يُتخيل كالماء يجري على الأرض نصف النهار حين يشتد الحر..، والقاع: المُنبسط من الأرض الواسع؛ وفيه يكون السراب"[٤].

[٣] محمد بن جرير الطبري؛ جامع البيان، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الأولى؛ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م (١١٧ ٣٢٦)

[٤] محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني؛ تفسير ابن فورك، تحقيق: علال عبد القادر بندويش (ماجستير) وآخرين، جامعة أم القرى السعودية، ١٤٣٠-٢٠٠٩م (١١ ١٥١).

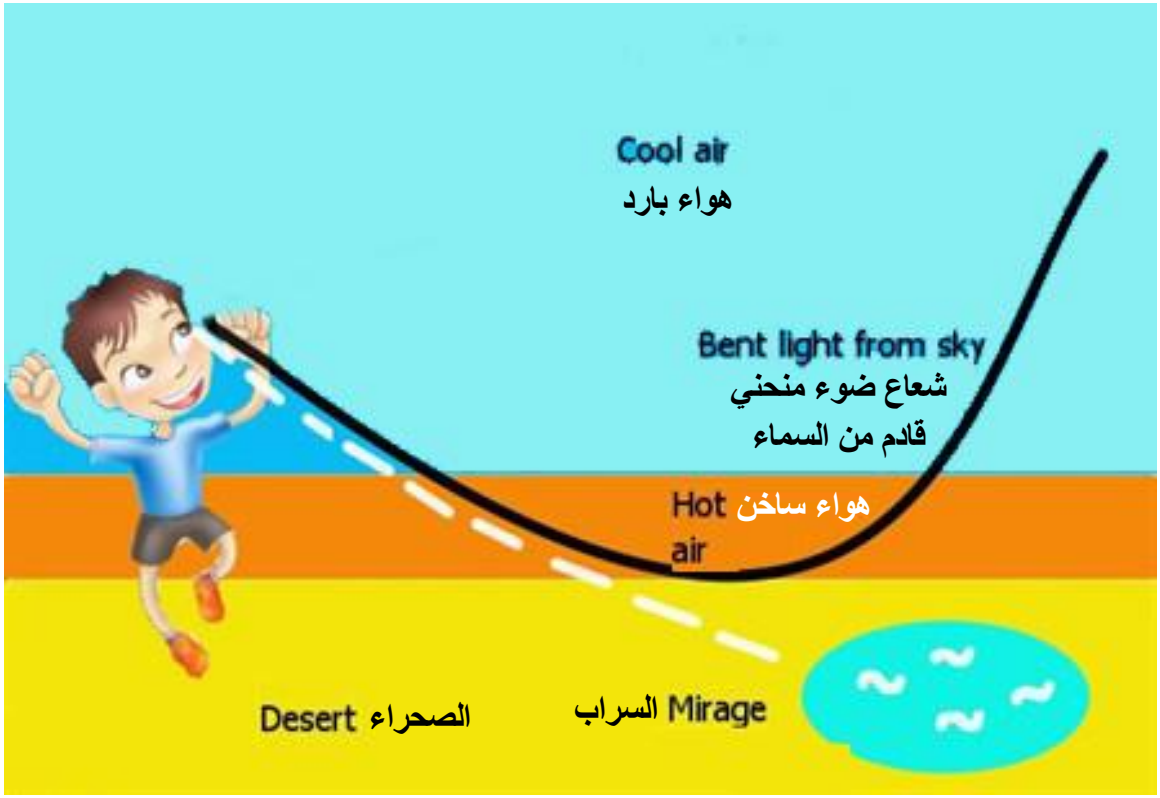

ولكي ينحني الضوء القادم بزاوية مناسبة من المصدر؛ ينبغي أن تتحقق عدة شروط، وهي سطح مستوي ومتسع يعمل عمل المرآة، ويكون الوقت عند القيظ في وقت الظهيرة صيفًا خاصة في الصحراء؛ بحيث تكون درجة حرارة الطبقة الهوائية المُلاصقة للأرض مرتفعة تعلوها طبقة أبرد، وهي نفس الشروط المُتحققة في المثل المضروب في النظم؛ لشخص بلغ به اليأس مداه في قيظ الصحراء فشاهد بعيدًا في البيداء ما يبدو ماء؛ فإذا به سراب، فهو إذن هالك لا محالة.

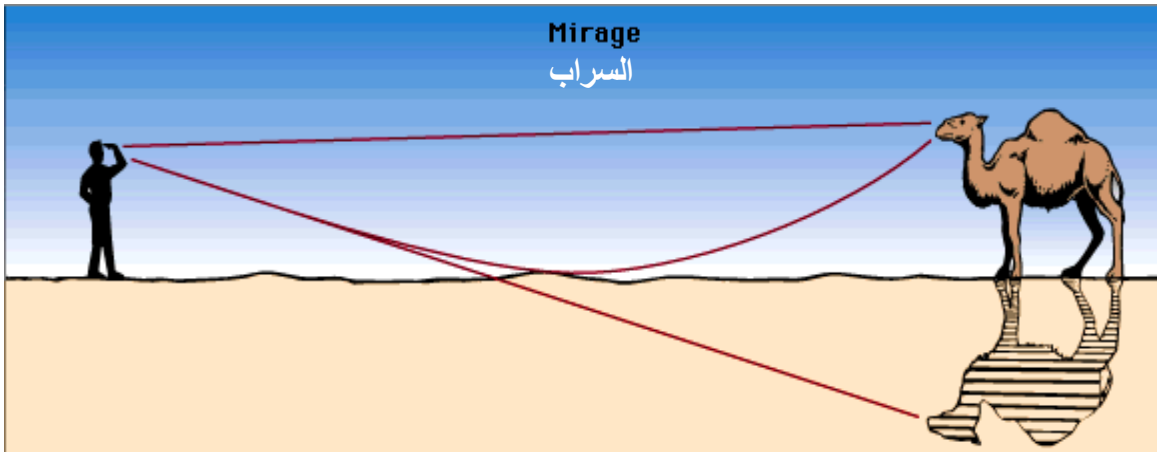

فعندما تكون طبقة الهواء الملاصقة لسطح الأرض هي الأكثر سخونة يكون تقعر شعاع الضوء القادم نحو الأسفل، ولذلك يكون السراب في السهول والقيعان وطرق المواصلات للأسفل كذلك؛ ويُسمى السراب السفلي Inferior Mirage.

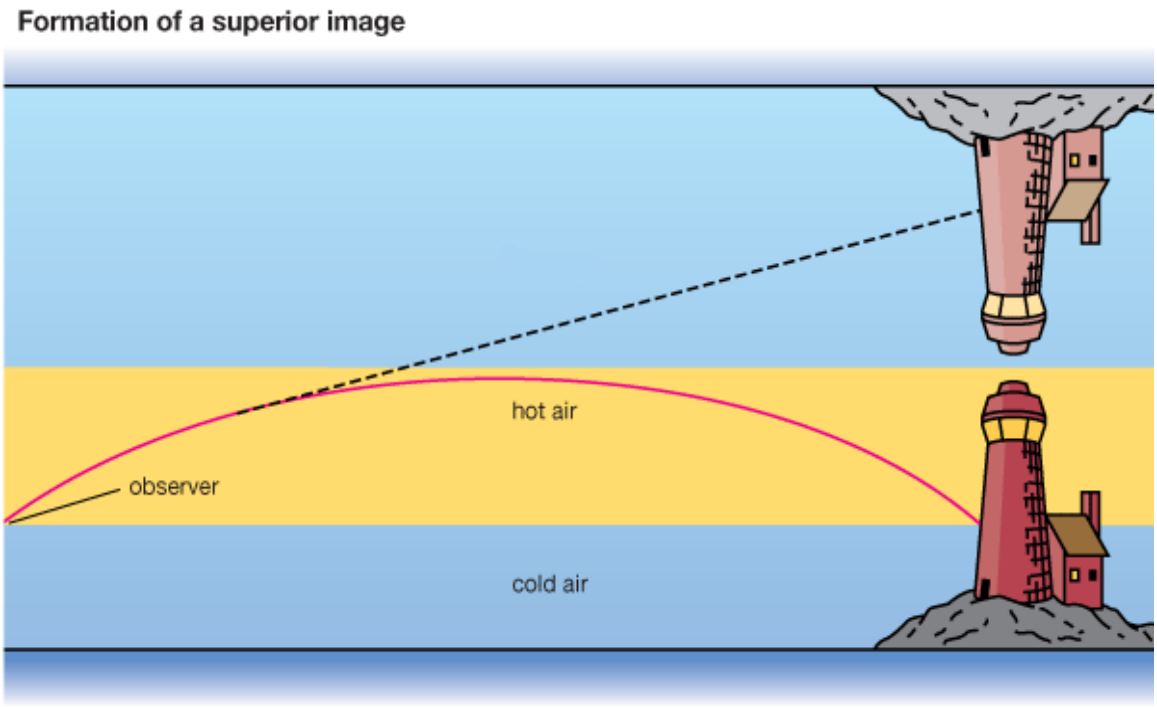

ويقع العكس في المناطق الجليدية القريبة من القطب، حيث تكون الطبقة الهوائية الملاصقة لسطح الأرض هي الأبرد؛ فيكون تقعر شعاع الضوء نحو الأعلى ويُشاهد السراب مُنعكسًا للأعلى، لذا يُسمى السراب العلوي Superior Mirage، وفي البحار خاصة تُشَاهد المراكب البعيدة معكوسة في مستوى أعلى نتيجة هواء أبرد يعلو سطح البحر يكسر الأشعة، بينما في الصحاري الحارة تُشاهد صورة سفلية للأجسام البعيدة نتيجة تخلخل الهواء فوق سطح الأرض فيكسر الهواء الكثيف شعاع الضوء، ولا يحدث السراب إذن إلا بتخلخل الهواء الأسفل في جو حار، ويلزم وجود أرض مستوية تعكس الأشعة كالمرآة، وفي أرض مستوية تبدو صورة السحب بهيئة ماء، والقرآن المجيد يجسد ضلال الدين بالضلال في الرؤية، والعجيب أن يشترط لوقوع السراب أن يكون بقيعة؛ وهي الأرض المستوية المُتسعة المنبسطة في تصوير للمعاند المقطوع الأمل في النجاة بحال الضمآن التائه في الصحراء في يوم قائظ يتخيل في الوهم نجاة؛ فلا يجد إلا الهلاك.

قُطُوف تَفْسِيرِيَّة

Interpretation picks

قال الماوردي: "قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ} أما السراب فهو الذي يخيل لمن رآه في الفلاة كأنه الماء الجاري..؛ وأما القيعة فجمع قاع مثل جيرة وجار، والقاع ما انبسط من الأرض واستوى، {يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً} يعني العطشان يحسب السراب ماءً، {حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً} وهذا مثل ضربه الله للكافر يعول على ثواب عمله فإذا قدم على الله وجد ثواب عمله بالكفر حابطًا، {وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ} فيه وجهان؛ أحدهما: وجد أمر الله عند حشره، الثاني: وجد الله عند عرضه، {فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ} يُحتمل وجهين؛ أحدهما: ووجد الله عند عمله فجازاه على كفره، والثاني: وجد الله عند وعيده فوفى بعذابه ويكون الحساب على الوجهين معاً محمولاً على العمل..، {وَاللَّهُ سَرِيع الْحِسَابِ} يحتمل وجهين؛ أحدهما: لأن حسابه آت وكل آت سريع، الثاني: لأنه يُحاسب جميع الخلق في وقت سريع"[٥].

وفي تفسير الجلالين: "{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالهمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ} جَمْع قَاع أَيْ فِي فَلَاة وَهُوَ شُعَاع يُرَى فِيهَا نِصْف النَّهَار فِي شِدَّة الْحَرّ يُشْبِه الْمَاء الْجَارِيَ {يَحْسَبهُ} يَظُنّهُ {الظَّمْآن} أَيْ الْعَطْشَان {مَاء حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدهُ شَيْئًا} مِمَّا حَسِبَهُ كَذَلِكَ الْكَافِر يَحْسَب أَنَّ عَمَله كَصِدْقِهِ يَنْفَعهُ حَتَّى إِذَا مَاتَ وَقَدِمَ عَلَى رَبّه لَمْ يَجِد عَمَله أَيْ لَمْ يَنْفَعهُ {وَوَجَدَ اللَّه عِنْده} أَيْ عِنْد عَمَله، {فَوَفَّاهُ حِسَابه} أَيْ جَازَاهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، {وَاَللَّه سَرِيع الْحِسَاب} أَيْ الْمُجَازَاة"[٦].

وقال الراغب: "(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).. بين أن كل خير حصله الإنسان فمدخر له بخلاف عمل الكفار الذي قال فيه: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}، وبخلاف عمل الدنيا الذي قال فيه: {كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ}، وعلى ذلك قال: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ}، وقال: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}، وأمنهم من ضياع ما يقدمونه بقوله: {إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} تنبيها على نحو قوله: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}"[٧].

---

[٥] الماوردي؛ النكت والعيون، تحقيق السيد عبد المقصود عبد الرحيم، دار الكتب العلمية بيروت (١٤ ١٠٩).

[٦] جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي؛ تفسير الجلالين، دار الحديث بالقاهرة، الطبعة الأولى (ص٤٦٥).

[٧] الراغب الأصفهاني؛ تفسير الراغب، تحقيق د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب جامعة طنطا، الطبعة الأولى؛ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م (١١ ٢٩٢).

الحَقْل العِلمِي Scientific Field

Physics

علم الفيزياء

المَوْضُوع Subject

Mirage

السراب

نُصُوص مُتَعَلِّقَة Related Texts

- **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ٢٤النور:٣٩.**
- **﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ٢البقرة:١١٠.**
- **﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا. وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ ٢٥الفرقان:٢٢و٢٣.**
- **﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ٣آل عمران:٣٠.**
- **﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ٩٩الزلزلة:٦-٨.**
- **﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ٥٣النجم:٣١.**